الانسان الآلة

لفليمون فوري

قدّر ان تكون فلسفة الفيلسوف الفرنسي ديكارت منشأ المشكلات الفلسفية والمعضلات التي لا يزال يعالجها اهل الفلسفة الى يومنا هذا . وقد أبنت في مقال سابق نشره المقتطف تحت عنوان « العقلي والمادي » كيف ان قضية الفصل المطلق التي فصل بها ديكارت بين العقل والمادة ادّت الى كثير من النظريات والافكار المختلفة وكيف تعددت فيها وجوه المسائل والقضايا الفلسفية وما انتهت اليه في وقتنا الحاضر

ولدينا هنا مشكلة الانسان الآلة (man machine) ولكن هذه لم ينشئها ديكارت بل خلقها فلاسفة القرن الثامن عشر الذي كان بنوع خاص خصباً بفلاسفة المادة وعلماء الطبيعة . الاّ ان فلسفة ديكارت كانت منشأ هذه المشكلة ومنبت غرسها واليك ايها القارىء بيان ذلك :

قضت فلسفة ديكارت بالفصل التام بين المادة والعقل وجعلت كلاًّ في دائرته الخاصة فلا تفاعل بينهما على وجه السببية ولا تداخل على الاطلاق . وقد ارتأى ديكارت هذا الرأي وجرّد الطبيعة من كل اثر للعقل خلافاً لمن تقدمهُ من الفلاسفة ليدع للعلم الطبيعي مجالاً لتفسير حوادث الطبيعة ونواميسها تفسيراً طبيعيًّا ميكانيكيًّا بحتاً . وعليه فلا يكون ثمَّ من قصد في الطبيعة كما يزعم الفلاسفة ولا غاية لانهُ اذا سلمنا بوجود قوة عقلية تدبر الكون فاننا نكون قد حكمنا بوجود العقل في الطبيعة نفسها وهذا غير ما يريدهُ ديكارت . ثم ان ديكارت لم يقف عند هذا الحد بل اطلق هذا المبدأ حتى تناول العالم العضوي (organic world) أيضاً فجعل حياة الحيوان والنبات خاضعة لهذا الحكم وكذلك جسم الانسان لانهُ من العالم العضوي . فعندهُ ان حياة الحيوان ومثلها الحياة في الجسم البشري تمشي على طريقة ميكانيكية بحتة فتشبه الآلات الصماء كالساعة مثلاً او غيرها مما يدور بحركة ذاتية ميكانيكية غير ان الفرق بينها ان المحرك في الساعة هو الرقّاص اما في الجسم البشري فالحرارة المتولدة في القلب . ويقول ايضاً انهُ لا حاجة الى فرض اية قوة لتدبر هذه الحركة الحيوية في الجسم فمجرد تركيب الجسم على هذه الصورة هو كتركيب ادوات الآلة كافٍ لتقوم الاعضاء بوظيفتها تماماً . وان وجود الدم والحرارة هو كل ما يقتضي لهذه الغاية

يتضح مما تقدم ان ديكارت لم يطلق هذه اللفظة «الآلة» على الانسان بل على الحيوان فقط

فقال الحيوان الآلة (animal machine) لا الانسان . أما الفلاسفة الماديون الذين عاصروا فولتير مثل لامتري وكوندياك وتولاند وهارتلي وهولباخ وهلفيتيوس وديدرو وغيرهم من فلاسفة القرن الثامن عشر فانهم تناولوا هذه الفكرة ووجدوا فيها دعامة قوية لمقاصدهم ومبادئهم المادية فجعلوها حجر الزاوية واخذوا يبنون عليها ما شاء لهم التصور من غريب الآراء والافكار. وكان اول ما شرعوا فيه بهذا الصدد قولهم « اذا كان الحيوان آلة » فلماذا لا يكون الانسان ؟ « وما الدماغ » ؟ هو آلة الفكر كما ان اللسان هو آلة الذوق . وزعم هارتلي ان الفكر نتيجة اهتزازات ذرات الدماغ وهذه تتحرك تبعاً لنواميس طبيعية آلية . وذهب بريستلي وهو مكتشف الاوكسجين الى ان الاعمال والحركات الفكرية هي من نوع حركة الاجسام المادية . وقال كابانيس ان الفكر وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة وافراز الصفراء وظيفة الكبد . وفي سنة ١٧٧٤ وضع البارون هولباخ الالماني كتاباً في المذهب المادي تحت عنوان « نظام الطبيعة » يفسر فيه جميع النواميس الطبيعية وحوادث الكون بمجرد المادة والحركة فقط . ويزعم ان الفكر هو عمل الدماغ وليس خالداً سوى المادة . وانهُ لا يوجد شيء مما نسميه روحاً . ولا قصد ولا غاية في الطبيعة ولا خارجاً عنها . انما ارادة الانسان فهي غير حرة بل خاضعة حتماً لناموس الضرورة واحكام القدر

وجملة القول ان هذا هو رأي الفلاسفة الماديين في العقل البشري وقد بنوه كما تقدم على نظرية ديكارت . ولما كان رأي ديكارت ايضاً انهُ لا علاقة ولا تأثير للعقل في اعمال الحياة العضوية تبادر لاذهان غلاة المادية انهُ اذا كان لا علاقة للعقل ولا تأثير في اعمال الجسم ووظائف الاعضاء فأي حاجة اليه . ان هو الاَّ تابع من توابع المادة وخاصة من خواصها وليس له وجود مستقل عن المادة اصلاً

هذا وان للفلاسفة العقليين او الروحيين ردوداً حجة على آراء الماديين هذه ولكن ليس هذا مجال بسطها لاني قصدت بيان قضية الانسان الآلة حسبما تطورت بين ايدي فلاسفة المادة. على أنا اذا بسطنا رأي العلامة الفيلسوف الالماني هرمان لوتزي (١٨١٧—١٨٨١) وهو احد أعلام الفلسفة العقلية وقد حاول الجمع او التوفيق بين مختلف الآراء الفلسفية وخصوصاً بين الرأي الميكانيكي والمبدأ العقلي الروحي. فاننا نكون قد اشرنا الى رأي الفلاسفة العقليين بهذا الصدد وهو نقيض الرأي المادي المتقدم ذكره والى الاتجاه الفلسفي الغالب بعد القرن الثامن عشر

يقول لوتزي « ليس الانسان مجرد مرآة تنعكس عليها صور الاشياء والحوادث الخارجية . ان العالم المادي الذي يسير سيراً ميكانيكيًّا لا يستطيع ان يفيدنا شيئاً عن الوجود المعنوي وأسرار الحياة العميقة ومقاصدها السامية . ان هذه جميعها لا يمكن ان يكون لها أثر في عالم ميكانيكي بحت . ومع هذا فلا بد من تفسير النظام الطبيعي وفقاً لهذه النظرية الميكانيكية . ان الجسم الحي انساناً كان او حيواناً يحيا ويقوم بوظائفه كما تقوم الآلة الصناعية بعملها تماماً ولا

نرق بينها من هذه الجهة مطلقاً . ثم ان الفرق بين المواد الآلية وغير الآلية ليس بكون الاولى تمتاز عن الاخرى بوجود قوة حيوية فيها بل بتركيبها وترتيب أجزائها بنسبة بعضها الى بعض . وهذا الترتيب فيها هو نتيجة عوامل طبيعية تحدد لكل جزء صورتهُ ووجهة تطوره وارتقائه

« وان رأينا كهذا اذا أخذناهُ بظاهره كما لا يدع مجالاً لحقيقة الانسان ومقاصده العظيمة ومطالبه انسانية . غير أنّا اذا اختبرنا الاسباب الاولية والمقدمات التي بني عليها الرأي الميكانيكي هذا نجد ان هذا هو غير الواقع . ذلك لان العالم الخارجي الذي نخالهُ ونعتقدهُ عالم الحقيقة انما هو عالم ظاهري فقط (phenomenal world) أي الذي تمثلهُ لنا الحواس لا العالم الحقيقي بالذات — هو نتيجة شعورنا وادراكنا للمؤثرات الخارجية وتفسير العقل لها . بيد ان هذه الاحساسات والادراكات ليس الاّ تأثيرات عقلية في العقل نفسهِ، وما الحس والادراك فينا بل والمبادىء العقلية التي نفسرها لمختلف الحوادث والمؤثرات، الاّ وظائف متنوعة في العقل الواحد الانساني

اذاً ما هو جوهر الاشياء الخارجية وبعبارة أخرى ما هي الحقيقة بالذات ؟ انا اذا أنعمنا النظر وتختبرنا الاسباب والمقدمات وجدنا ان الاستقراء يؤدي بنا الى نتيجة واحدة فقط وهي المبدأ التصوري (Idealism) ودليل ذلك ان الاشياء بالذات [1] (things-in-themselves) يجب ان تكون من طبيعتها ان تؤثر في غيرها وان تتأثر به . ان كائناً بهذه الصفة لا نجدهُ الاّ في انفسنا فقط وما هو إلاّ ذلك الجوهر في داخلنا والذي يؤلف وحدة الوجدان فينا وهو مانسميه الروح او النفس . هذه الوحدة في الوجدان التي تستطيع ان تجمع بين مختلف التأثيرات الخارجية والداخلية وتؤلف منها أبداً وحدة كاملة هي التي تحدو بنا الى الاعتقاد بوجود نفس فائقة الحس غير قابلة التجزئة ومستقلة أو متميزة كل التميز عن الجسد . وانهُ في النفس وفي النفس البشرية فقط نجد هذه الوحدة الدائمة بين الاشياء المتعددة والثبوت على حال واحدة وسط جميع عوامل التحول والتغير والنشوء

لذلك فالجواهر التي يتكلم عنها العلم هي غير مادية بالمعنى المتعارف ولا يمكن تعريفها الاّ بانها أشبه الاشياء بوحدات ليبنتز (Leibniz's monads) او بانها مراكز قوة فقط كالتي نختبرها في أنفسنا . وحتى الدقائق التي في أدنى طبقات المادة ليست اشياء ميتة جامدة كما نتوهم بل مملوءة حياة وحركة ونشاطاً . وان في الطبيعة درجات متفاوتة من الحقيقة ولكن أسماها العقل البشري بيد ان في أحط ضروب المادة أثراً من القوة العقلية ايضاً

هذا هو رأي الفيلسوف لوتزي في العقل والوجود المادي وهو يعبر بهِ عن رأي معظم الفلاسفة العقليين فيما نعلم . ولعل فيهِ اشارة كافية لتبين لنا ان في الوجود اسراراً لم تتجل بعد للعقل البشري فلا يتوهمنّ الواهمون ان فلاسفة المادة فكوا الطلاسم وحلوا الالغاز وقذفوا بمادتهم الى اعماق الحياة . فهذه لم تؤت بعد لمخلوق وأسرار الوجود لم تشرق بعد انوارها على عقول بني الانسان

(١) هذا هو تعبير الفيلسوف الالماني كانت وهو يقصد به التمييز بين الاشياء كما هي في حقيقتها الاصلية وبينها كما تبدو للحواس